

الأستاذة: بن جاب الله أنيسة

المحاضرة الرابعة

الشعر في تونس: القضايا والخصائص العامة

استفادت الحركة الشعرية في تونس خلال النصف الثاني من القرن 19 من بوادر النهضة الإصلاحية التي شملت الفكر والأدب؛ حيث أدى ازدهار الصحافة والطباعة وكذا النشاط الثقافي والتعليمي إلى ظهور طليعة المثقفين في تونس؛ ففي سنة 1876م أنشئ المعهد الصادقي وفي سنة 1896 تأسست المدرسة الخلدونية، وقد كان لهذه المؤسسات العلمية الأثر البالغ على النهضة الحديثة بتونس، فقد كان منها رجال العلم والأدب الذين اشتهروا بكتاباتهم في جرائد ومجلات قدمت لهم فضاءً للشهرة و الظهور، مثل جريدة **الرائد التونسي** (1860م) التي كان لها دور مهم في تشجيع حركة الشعر الحديث في تونس.

وقد خضعت هذه الحركة الشعرية لسنن النهضة الأدبية المعروفة؛ فمرت بمراحل مهمة، انطلقت أواخر القرن 19 من التقليد والاحياء، ثم إلى التطلع نحو التجديد ومجارات القصيدة الرومنسية خلال ، وواصلت التطور فعانقت القصيدة الحرة وقصيدة النثر.

ولما كان الشعر ترجمة لوعي الشاعر بواقعه من جهة وبفنيات لغة الشعر من جهة أخرى؛ فقد أسفرت قصائد كل مرحلة عن وعي أصحابها بقضايا واقعهم بالإضافة إلى مجاراتهم لأساليب الشعر النهضوي والمعاصر.

مراحل تطور الشعر التونسي:

1/ مرحلة القصيدة التقليدية

كانت بدايات الشعر التقليدي أواخر القرن 19 ولم يختلف في خصائصه عن بدايات التقليد في المشرق؛ فهو لم يبرح المواصفات الإيقاعية للقصيدة التراثية وأغراضها من مدح وثناء وغزل ووصف للطبيعة وإخوانيات و موضوعات التهاني، ولقد ذهب في وصفه **محمد الطاهر بن عاشور** بأنه "في أغراضه وروحه وأسلوبه على ما كان قبل عصر النهضة في الشرق أي قبل عصر البارودي...". وتفردت **جريدة الرائد التونسي** بنشر أعمال شعرائه من أمثال: **محمود قبادو، محمد التطاويني، محمد بن عثمان الحشايشي، الشيخ الخصار، محمد الرياحي، أحمد بن الخوجة...**

وعن هذه القصيدة التقليدية المعنونة في أساليب الشعر القديم والمستحضرة لروحه في الفخر نذكر قول الشاعر **محمود قبادو**:

هذا الذي نظمت له الأباد عـقـدا به تتفاخر الأنجاد

تنسي محاسنه القلائد والمعاني إن زها بنظمها الإنشاد

فيريك نفع الطيب من زهر الر ياض بزهر أفق بلاغة تنقاد
جمع المحاسن زهرها والزهر في ديوان شعر أبي الثنا قابادو

وقد تمخض الفكر الإصلاحى عن لون جديد من الشعر انفتح على قضايا العصر لعل أول من كتب فيه محمود قابادو. وقد انبثقت من هذه التجربة في أواخر القرن نفسه حركة عرفت بـ (الشعر العصرى) امتد حضورها حتى العقد الثالث من القرن العشرين. وكان من أبرز أعلامها المؤسسين: محمد السنوسى، وصالح السويسى القيروانى، ومحمد النيفر وحسن المزوغى، ومحمد النخلى، وعبد العزيز المسعودى. فقد دعت تلك الحركة إلى هجر أغراض الشعر العربى القديم وفتح القصيدة على قضايا العصر وتوظيفها في تصوير مظاهر التقدم التى أفرزتها الحضارة الغربية الحديثة.

ولئن عدّ ظهور الشعر العصرى نقلة نوعية وإيحاءً من جريدة الحاضرة (1888م) إلى الشعراء بأن يتخلوا عن الاتجاه التقليدى، ويتجهوا إلى الكتابة في الموضوعات المعاصرة التى تمس شؤون الناس، فإن صياغة القصيدة وبنيتها ولغتها ظلت على ما هي عليه احتفاءً بالمطالع ورصفاً للقوافى، وحشداً للألفاظ المفخمة.

2/ مرحلة القصيدة الرومنسية

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أتى على الحياة في الأوطان العربية تغييرات كثيرة شملت ميادين الأدب؛ وقد صور الشعر هذه المرحلة بلامسة الواقع السياسى والاجتماعى ومعالجة قضاياها، واستفاد أيضاً من المفاهيم الجديدة للقصيدة الرومنسية. ويعد الشاعر أبو القاسم الشابى رائد القصيدة التجديدية في تونس بل عدّ ظاهرة متميزة في الشعر التونسى المعاصر؛ لأنه رغم انتمائه إلى مدرسة المهجر وتأثره بالأسلوب الجبرانى، استطاع أن يطلع على القراء برؤية أدبية واضحة ومنهج فكرى جعلاً منه مؤسساً لتيار جديد، وهو الذى أعلن منذ البداية:

لا أنظم الشعر أرجو به رضاء الأمير
بمدحمة أو رثاء تهدي لرب السريـر
حسبى إذا قلت شعرا بأن يرتضيه ضميرى

حيث كان هذا الشاعر صاحب روح تحب الحياة فتغنى بها في شعره ودعا قومه ليحققوا عيشاً هنياً شريفاً يليق بهم ويرفضوا كل مظاهر العبودية والاسغلال، وقد صاح بلهجة ثورية متمردة في كثير من أشعاره طلباً للحرية الضائعة، ولعل أشهر قصائده فيها "إرادة الحياة" التى مطلعها:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

وقد حفل ديوانه "أغاني الحياة" بموضوعات الحرية والثورة وقد سلك في طرقه لهذه الموضوعات الطريقة الرومنسية؛ من خلال مناجاته لمظاهر الطبيعة و التعمق في الأحاسيس الذاتية والإفصاح عن المشاعر الشخصية تجاه أسئلة الوجود ومواقف الزمن الذى تنكر له في أمور جوهرية أهمها مواجهته للمرض القاتل الذى داهمه في سن مبكرة، ففي

قصيدة "نشيد الجبار" يجمع بين العدوين الانسان الظالم والمرض في تحدّ مكابر وإعلان لرفض الخضوع، يقول:

سأعيش رغم السّاء والأعداء كالنسر فوق القمة السّماء
أرّنو إلى الشمس المضيئة هازئاً بالسحب والأمطار والأنواء
لا أرمق الظل الكئيب.. ولا أرى ما في قرار الهوة السّوداء
وأسير في دنيا المشاعر، حالماً غرداً، وتلك سعادة الشعراء

وقد تميز نظمه بأمرين هما: عمق المعاني وسهولة الألفاظ؛ فالمعاني ترتبط بالإنسان وبالحيّة والشعور، والألفاظ سهلة لينة فيها قوة وقدرة على حمل المعاني المختلفة، بحيث تأتي مشعة تتداخل من خلالها المحسوسات، مما يقرب العبارة إلى الرمزية لما يكتنفها من غموض أو خيال عميق.

وقد كان صوت هذا الشاعر طيلة السنوات الثماني التي ظهر فيها للناس، من سنة 1926 إلى سنة 1934، بمنزلة الصرخة المدوية التي ارتجت لها أركان الوسط الثقافي التونسي بأسره وامتد صداها حتى المشرق العربي حيث وجدت تجاوبا واسعا لم يحظ بمثله أي صوت أدبي تونسي آخر حتى اليوم. وهو ما جعل منه ظاهرة فريدة لافتة وأهله ليكون نقطة استدلال مميزة حاسمة في تاريخ الشعر التونسي الحديث والمعاصر.

الأعمال الموجهة: الدرس الرابع

دراسة نص لأبي القاسم الشابي:

تسفر قصيدة " يا شعر " من ديوان الشاعر أغاني الحياة عن فهم عميق للقصيدة الرومنسية؛ حيث حملت هذه القصيدة في شكلها ومضمونها مبادئ التجديد الرومنسي، حاول من خلال تحليلك لمباني ومعاني هذه القصيدة استخراج هذه المبادئ وكيفية انعكاسها في نص القصيدة.

يا شعر أنت فم الشعب ور وصرخة الروح الكئيب

المصادر والمراجع:

- تاريخ الأدب التونسي الحديث والمعاصر لمجموعة من الباحثين (كتاب)
- الشعر التونسي من أواخر القرن التاسع عشر إلى اليوم، الموسوعة التونسية (موقع إلكتروني)
- محمود قابادو: الديوان
- أبو القاسم الشابي: الديوان